أوراق الورد (١)

رسالة الابتسامة

يَتَمَدَّدُ الحُبُّ على قلبِهِ كأنه في نفسِهِ يَتَهَدَّمُ
بِرَجْفَةٍ حامِلُها لم يَزَلْ مُمَزَّقاً في القلبِ لا يَلْتَئِمُ

***

زَلازِلُ البركانِ لما دَعَتْ إذ سَكَتَتْ بركانُها المُحْتَدِمُ
أجابها اللهُ الطُّفي وارجُفي من شفتَيْ محبوبةٍ تَبْتَسِمُ

***

لا يمكن القلبَ أن يعانق القلب، ولكنهما يتوسلان الى ذلك بنظرة تعانق نظرة وابتسامةٍ تضمُّ ابتسامة

كلمة سماوية مخلوقةٌ من الضوء في شفتيكِ الجميلتين تعبِّرُ عن كل شيء بحركة واحدة لا تتغيَّر ولا تختلف، على حين أن معانيَها في النفس دائبة في تغيُّرها واختلافها

في عينيكِ الأحلامُ رهيبةٌ غامضة، ولكن على شفتيكِ معاني الأحلام واضحةٌ مفسَّرة. فابتسامُكِ هو كلامكِ الذي لا تتكلمين به. وهو يضيء ليومئ بإشارة سماوية الى سر المجهول الذي يتحجَّبُ في جمالك. ولكنه لا يكاد يُومِضُ حتى يطفئه هذا السر، فيعودُ فيستطير ثم يعود فيختفي ثم يعودُ ثم يعود.

(١) «أوراق الورد — رسائلها ورسائله» هي التي نبهنا اليها في آخر كتابنا «رسائل الاحزان في فلسفة الجمال والحب» وهي معان تطارحها شاعر روحاني فيلسوف وشاعرة روحانية فيلسوفة فرسائل جرت بينهما في حالات مختلفة يكتب اليها بما عنده منها وما عند تقدمه من تقدم يكون من الوجود المحصور بينهما في حدود الحب وكذلك تفعل هي. وقد يكتب هو لنفسه بما في نفسه لا غير. وهذه رسالة الابتسامة واحدة منها

أهناك نزاعٌ على حقيقة خفية من الحقائق الجميلة لم تجد لها مخبأً الا ثغرك الجميل؟
أم لك فكرٌ شعريٌ موسيقيٌ فهو يرقص دائماً على وزنٍ من ابتسامك؟
أم في قلبك مادةٌ من النجوم فهي دائماً تلمح لمحها في سماء وجهك النيّرة؟

***

يجد الطفل على كل حالة وفي كل مكان سرورَ نفسه لسبب واحد وهو أن ابتسامه أبداً معه، فهو لم يملك من الوجود شيئاً بعدُ ولكنه أغنى من عليها بهذا الكنز الذي خبأته السماء فيه لينفق منه فيما لا تبيعُ كنوزُ الأرض ولا تشترى

لولا هذا الابتسامُ في هؤلاء الأطفال وأنه على أفواههم كالنبض في قلوبهم، لما نفعتهم نافعةٌ في تحصيل النموّ للجسم والصبر للطبيعة والاستقرار للعاطفة والهدوء للنفس والسعة للعقل، ولضغطت الحياةُ أجسامهم ونفوسهم اللينة في قوالب معانيها المحدودة الضيقة المصبوبة من الضجر والآلام والهموم فما يكبرُ من بعدها على الأرض طفل أبداً. ولكن ابتسامهم سَراحٌ من كل قيود المادة. هو أشعةٌ الهية تذيب ما حول القلب الصغير من المعاني الضاغطة عليه ولو كان كلُّ معنى رُوحَ جبل صخريّ من الهمّ

لا تزال الجنةُ مع الطفل حتى اذا كبرَ قيلَ له كما قيلَ لآدمَ أهبطْ منها أكل آدم من الشجرة ولا شيء يضيع في الكون فأين الحلاوة؟ هيَ في أفواه الأطفال!

***

ويتبسّم الطفل ويضحك ونحسبُ ذلك على مقداره. كلاّ إنه وان يكن طفلاً صغيراً في ملء جلده وعلى وزن جثته، ولكن مادة ابتسامه على مقدار

الطبيعة كلها لأن عظمة الكون هي التي ترعاه بهذا الأسلوب الصغير هو لا يحيا في العالم بل في معاني نفسه . وبذلك هو دائماً فوق الدنيا

ومن حياة الأطفال في معاني أنفسهم ندرك سرّ الحب وسرّ السعادة . فان كل لذة الحب وإن أروعَ ما في سحره أنه لا يدعنا نحيا فيما حولنا من العالم بل في شخص جميل ليس فيه إلا معاني أنفسنا الجميلة وحدها ومن ثَمَّ يصلنا من جمال الحبيب بجمال الكون ، ويتشيّ لنا في هذا العمر الانساني المحدود ساعاتِ الهيمةَ خالدةً تُشعِرُ المحبَّ أن في نفسه القوةَ الماثلةَ هذا الكونَ على سعته . فتمرُّ النفس حينئذٍ في سبحاتِ اللذة الروحية من الجميل ، الى الجمال ، الى الطبيعة ، الى الله

***

أما ابتسامتك أنتِ ؟

انكِ حين تمنحين نظرتَكِ وتُتبعينها الابتسامةَ التي تفسّرها أقول عندئذٍ في نفسي لقد علمَ اللهُ علمَهُ في حكمته ورحمته . فلما خلق الحقيقةَ من قوّته عابسةً جافيةً قابلها من رحمته بالحبيبة متبسمةً رقيقة . فلعل المرأة الجميلة أسلوبٌ في الفرع الانساني كأسلوب الشاء الزهرة في ذات القوة الخشنة التي تنبت الشوك

***

المعنى الذي لا يتحولُ بغيره يقابله المعنى الذي لا بد ان يحوّل غيرَه . إنها مشكلةٌ عجيبة كان حلُّها أعجبَ منها

فما توجد امرأةٌ هي جميلةٌ فاتنةٌ في وهم رجل إلا انبعث من شخصها معنى ليس في أحد غيرها كأنّ فيها وحدها ما لا يوجد في آدميّ . وفي هذا السيّال المنويّ يذوب كل شيء . وترى هذا الرجل يصغُرُ للحب — ولا أقول يصغُرُ

به — فيرجع كالطفل تتولاه الطبيعة في شكل امرأة ، تعمل وحدها فيما يسوء ويسر عملَ الدنيا وأكبرَ من عمل الدنيا

ولكلّ محبّ مع المخلوقات التي يعيش بينها مخلوقات من خواطره وآماله ، وهذا برهان آخر على ان الشخص المحبوبَ أحدُ قوتين متقابلتين في الخلق

***

في ابتسام الحبيب يتنقل العاشقُ بروحه بين المعاني والخيالات الشعرية السماوية ، وفي تلك النظرات يسافر بقلبه الى أحلامه البعيدة كما يسافر الفلكيُّ بعينه الى النجوم في (التلسكوب)

يسمّونه ابتساماً . ولكن حين يظمأ النباتُ لا يقول للناس أريد الماء ، بل يقول للشمس وحدها أريد من شعاعك البارد العذْب يا حبيبتي

والماء حين يصير محرُّقَ الأسفنج الجافّ يقول إن كل ثقب من هذه الثقوب نفسٌ ظمآى

كذلك أوحيَ اليّ أن محبّاً قبّل حبيبته في روضة عند شجرات من الورد ، فأشارت إحداهن الى شفتي الجميلة المضمومتين وقالت لصواحبها : أسمعتنّ قطُّ أجملَ من صوت هذه الوردة الصغيرة وهي تتفتّح . . .

الزمنُ كلُّه موسيقى عند المحب ، ولماذا ؟

لصوت حبيبته

والزمن كلُّه ربيع في رأي عينيه ، والدليل ؟

وردُ خديها وشفتيها

والزمن كلُّه جمالٌ في نفسه ، والبرهان ؟

كلها . كلها . . .

وهل أبدع الله الفمَ الجميلَ المبتسمَ بهندسته وتقسيمه الا ليُبدعَ هو في إبتساماته فنُ الروح حين لا تستطيع أن تتكلم فترتعش . . . ؟

كلامُ الفكر من اللسان ، وكلامُ القلب من العينين ، أما كلامُ الروح فهو هذه الحركةُ البليغةُ وحدها . وحدها

أليس تألق الماسة هو وحده لغةَ معدنها النفيس ؟

الألفاظ تجيء ومعانيها في نطقها . ولكن ابتسامَ الحبيبة هو يستخرج معناه من محبها

واللغة رابطة بين النفس والمادة، وأما الابتسام فرابطة بين الحس والقلب

إنها الروحُ تأخذ عن روح أخرى في حالة من الحالات النفسية الخالقة، تحوّلُ كلَّ شيء الى لغةٍ حتى اللحمَ والدم

***

عند ما تبتسمين أشعر بحرارة أفكارك في دمي

وفي تضرُّج وجنتيك لا أرى احمراراً ولا خجلاً ولا حياء بل أرى قلبك يتكلم بلون خديك

إن للقلب أربعَ لغاتٍ يتكلم بها : واحدةٌ منهن بالألوان في الوجه ، والثانيةُ بالدلال في الجسم ، والثالثة في النظر بالمعاني . والاخيرة وهي أسهلهن وأبلغهن : يتكلم بكل ذلك في ابتسامة

***

ومع ابتسامة الحب يأتي فمُ الحبيب أن يَلفظَ كلمةً لا يقبّلها فمُ حبيبه يالها فكرةً ملائكيةً مُعلّقةً على فم .....

(طبق الأصل) مصطفى صادق الرافعي